

الموقف القومي التعريف به - سمائه الأساسية

عبد الله الريماوي

الموقف القومي بكونه " موقفاً " وشأن كل " موقف " هو جواب على مسألة :
أ - يتبلور في نقاط أساسية تكون أهم محتواه (نظرية كانت هذه النقاط أو حركية) .
ب- يتسم بسمات أساسية تنبع من طبيعة تلك المسألة ؛ ومن نوعية الجواب عليها ، ببعديه النظري
والمسلكي .

ان الموقف القومي من مسألة " القومية أو اللاقومية " . وهو موقف يؤكد ، في الجواب على هذه
المسألة نقاطاً أساسية - نظرية وحركية - نابعة من طبيعة تلك المسألة ومن نوعية الجواب عليها .
فالموقف القومي ، لذلك ، هو موقف من مسألة تكون احدى اربع مسائل كبرى ، نرى أنها تكون-
مجتمعة متفاعلة - المحاور الأساسية التي يدور حولها تاريخ الانسان : بصورة او بأخرى ،
وبمقدار أو آخر من الاهتمام والتركيز ، يختلفان من كل " مسألة - محور " الى أخرى اختلافا
يتبع اختلاف المجتمعات البشرية من جهة ، ويتبع تغير العصر من جهة أخرى . ولكنها رغم ذلك
الاختلاف تبقى ، مجتمعة متفاعلة ، " ا لمسائل- المحاور " التي يدور حولها هذا التاريخ في كل
مكان وزمان .

وهذه " ا لمسائل- ا لمحاور " الكبرى هي :

- * مسألة القومية او اللاقومية.
- * مسألة الاشتراكية او اللا اشتراكية.
- * مسألة الحرية والديموقراطية.
- * مسألة الحياة العقلية الروحية.

ان الموقف القومي من " المسألة - المحور ،، الاولى ، شأن المواقف من " المسائل- المحاور "
الآخرى هو موقف مشتق ، ويجب أن يكون مشتقا ، من نظرية اكثر اولية و" اساسية " من هذا
الموقف . وهي النظرية التي تحدد ، اولا واساسا ، الموقف من " الإنسان ومقوماته " ومن " المجتمع
وروابطه " ومن " منطلق التاريخ وسننه "، اي التي تحدد الموقف من " الانسان في مجتمعه عبر
تاريخه " . فتكون بذلك المصدر والمنبع العقائدي الذي يشتق وينبع منه الموقف القومي والمواقف
الثلاثة من " المسائل - المحاور " الاخرى ، ويترتب على ذلك أن تختلف تلك المواقف ، في جميع
ابعادها، تبعا لاية اختلافات اساسية في النظرية ذاتها .

ان هذا التحديد " للمسألة - المحور " التي تكون موضوع الموقف القومي يبرز نقطتين اوليتين.
الاولى- أن مسألة القومية او اللاقومية، بكونها محورا اساسيا من محاور حركة التاريخ الانساني،
فانها ذات بعد حركي ، مسلكي . وأن هذه الحركية المسلكية تنصرف للموقف القومي ذاته.
الثانية- أن الموقف من هذه " المسألة- المحور " موقف مشتق من نظرية اكثر اساسية واولية منه:
تقرر ، الى حد بعيد، مضمون ذلك الموقف وسماته. فتقرر، من البداية، أيكون هذا الموقف موقفا
قوميا او لا قوميا - اقليميا كان او أمميا ماديا أو امميا مثاليا.

على هدى ما تقدم ، وفي نطاقه ، يمكننا ان نوجز أهم النقاط التي تكون مضمون " الموقف
القومي" ، بكونه موقفا انسانيا شاملا من مسألة " القومية او اللاقومية "، فيما يلي :

١- **بصدد الواقع القائم انسانيًا:** ان وجود الامم، وان انقسام البشر الى امم متعددة هما واقعتان مشهودتان لا تحتاجان الى بيان او اثبات .

٢- **بصدد التاريخ**

أ- أن الامم نشأت نتيجة حركات تفاعل، متعدد الأشكال والمضامين، بحيث يصح القول " ان الامة اعلى مراتب المجتمعات البشرية " .

ب- ان الحركة التاريخية المباشرة التي كونت كل امة ، أو مجموعة من الامم، تختلف- اختلافًا اساسيًا أو ثانويًا- مع الحركة التاريخية التي كونت امة أو مجموعة امم اخرى غيرها : فالحركة التاريخية التي كونت الامة العربية، هي جوهرها حركة روحية في اساسها، بينما الحركة التاريخية التي كونت امم اوربا المعاصرة هي حركة مادية في اساسها .

ج- أن اتجاه التاريخ في المستقبل، كما يبدو لنا من تتبع التاريخ في الماضي والحاضر، يشير الى أن وجود الامم يزداد رسوخًا وأن الامم ليست سائرة على طريق الزوال: فيشير بوضوح الى عقم محاولات تخطي الامم، أو تخطي الوجود القومي، تحت اعلام الإممىة المادية أو المثالية. وليس انهيار الامبراطوريات التي تخطت الوجود القومي وبنيت على اساس اممية دينية في الماضي، وليست كذلك علاقات الدول التي ترفع شعار الاممية الشيوعية ، الا امثلة واضحة تؤكد ما نذهب اليه في هذا المجال.

د- أن انقسام البشر الى أمم ابعده اصولًا في التاريخ الماضي ، وأصلب جذورًا في التاريخ المعاصر من انقسامهم على اي اساس اخر : كانقسامهم الى طبقات أو اديان أو ألوان أو ما اليه.

٣ - **بصدد تعريف الامة:**

أ- أن الامة مجموعة من البشر تكونت تاريخيًا، مستقرة ، تملك المقومات المشتركة التالية التي تكون، بمجموعها وتفاعلها، مقومات الامة وهي :

* اللغة المشتركة.

* الوطن المشترك.

* الخلق القومي المشترك الذي يتبلور في طابع حضارى مشترك ، وينشأ من تراث حضارى مشترك...

* الحياة الاقتصادية المشتركة.

* المصير المشترك الذي يتبلور فى ارادة مشتركة...

وجدير بنا ان نلاحظ بصدد هذا التعريف للامة، والتحديد لمقوماتها، التحفظات التالية :

* أن الحياة الاقتصادية المشتركة، كمقوم من مقومات الامة لا تعنى " السوق الواحدة " لإن وحدة السوق مرتبطة بوحدة الدولة وليس بوجود وحدة الامة.

* أن الامة غير الدولة : فالامة واقع بشرى حضارى تاريخي والدولة واقع سياسي : ولذلك فان انقسام أو تقسيم الامة الى عدة دول لا ينفى وجودها كأمة واحدة ، كما أن استيعاب دولة امبراطورية لعدة أمم أو اجزاء من امم لا تجعل من هذه الامم أو اجزائها امة واحدة .

* أن التعريف المذكور للامة لا ينفى ولا يتناقض مع ادراك وجود الطبقات أو الصراع الطبقي فيها ما دامت امة ذات مجتمع غير اشتراكي . فانقسام الامة الى طبقات ، ووجود الصراع الطبقي فيها واقعة تاريخية لا يجوز انكارها أو التنكر لها، على أن يكون ذلك في نطاق الادراك العلمي الى أن تكون الطبقات وسماتها ودور كل منها في حياة الامة، وأن طابع الصراع الطبقي الناتج عن ذلك يختلف من امة الى اخرى : فلا يكفي فيه العموميات أو نقل حقائق الطبقات والطبقية والصراع الطبقي كما تبدو في بلد معين أو في عصر معين الى كل بلد وفي كل عصر. ان المشكلة الطبقيّة، بجميع ابعادها، مشكلة قومية وليس العكس .

- أن التعريف المذكور للامة لا يعتبر الدين مقوما من مقومات الامة، بكونها امة، وان كان الدين في حالة بعض الامم يكون علم الحركة التاريخية التي كونت هذه الامة ، ويشكل عنصرا اساسيا من عناصر تكوين خلقها القومي وطابعها وتراثها الحضاريين : فاشترك مجموعة من البشر في دين واحد لا يجعل منهم أمة، كما ان وجود عدة اديان في نطاق امة واحدة تمتلك مقومات الامة المذكورة لا يقسمها الى عدة امم .

٤- بصدد القومية:

- أ- ان القومية هي وعي الامة لذاتها كأمة : بما ينطوي عليه هذا الوعي من افكار ومشاعر وعواطف، وتتبع من مقومات مشتركة هي مقومات الامة التي أشرنا اليها...
 - ب- أن القومية، اذن، اعلى مستويات الإجتماعية البشرية.
 - ج- انه حيثما ، توجد الامة توجد قوميتها فلا أمة بغير قومية ، ولا قومية الا للامة .
- ولذلك فانه من العبث بالمصطلحات العقائدية- عبثا جاهلا او هادفا متجاهلا- ان يتحدث احد: عن قومية جزء من أمة، كالقومية السورية أو المصرية أو الفلسطينية أو الليبية أو الجزائرية او ما اليها، او عن قومية مجموعة من الامم كالقومية الافريقية او القومية الاوروبية او القومية السوفياتية.

٥- بصدد القومية والانسانية

- أ- ان القومية انسانية بأعمق معاني الانسانية. وذلك لإنها التعبير المعنوي عن اجتماعية الانسان المنتمي للامة ، اي التعبير عن اعلى مراتب مستويات اجتماعية الانسان المنتمي الى اعلى مراتب المجتمعات الانسانية .
- ب- ان القومية، لذلك وعندما لا تكون قومية امة مستعمرة او متسلطة او عرقية، أي عندما لا تكون تعصبا او تمييزا ضد الامم الاخرى وقومياتها، فانها تكون تأكيدا للوجود القومي والحقوق القومية لجميع الامم من جهة ، وتأكيدا للتعاون والتفاعل بين مختلف الامم والقوميات تعاونا يقوم على تساوي هذه الامم والاحترام المتبادل بينها، على قدم المساواة ، كما انها تستهدف التعاون المثمر بين الامم والقوميات لصالح الحضارة الانسانية وفي سبيل مستقبل اسعد للانسان اينما كان.

٦- بصدد الابعاد الحركية للقومية:

- أ- ان " وجود الامة " ، وما يتبلور فيه هذا الوجود من " قومية " تعبر عنه ليس مجرد حقيقة راکدة تنحصر في " انتساب " الافراد الذين يملكون مقومات الامة وقوميتها الى هذه الامة والقومية.
- ان القومية " انتماء " وليست مجرد " انتساب " حيث نعني بالانتماء الانتساب ذا الابعاد الحركية. ان أهم الابعاد الحركية للقومية ، كما يكشف عنها ويؤيدها استقرار التاريخ بعدان يتبلوران في سنتين.
- أ- سنة الاستقرار القومي : ومضمونها ان الامة عندما تتكون بامتلاك المقومات المذكورة ، فإنها تعمل على المحافظة على وجودها القومي ومقوماتها ؛ وتقاوم جميع المحاولات التي تستهدف الغاء هذا الوجود أو الغاء أي من مقوماته في أي جزء من أجزاء الوطن .
- والامة العربية من أبرز الأمثلة على صدق سنة الاستقرار القومي ، لأنها أمة دافعت عن مقومات وجودها القومي وحافظت عليها في وجه محاولات أجنبية غازية قديمة وأخرى استعمارية معاصرة ، عملت بثتى الوسائل على الغاء الوجود القومي العربي بالغاء بعض مقوماته في بعض أجزاء الوطن .

ولقد نجحت الأمة العربية في ذلك الدفاع القومي المجيد ، فتحطمت تلك المحاولات على صخرة صمود هذه الأمة وكل مقوماتها .

ب- سنة النزوع القومي : ومضمونها ان الأمة عندما تتكون بامتلاك المقومات المذكورة ، فإنها تنزع نزوعاً عقلياً ونفسياً ونضالياً : لكي تمتلك دولتها القومية الواحدة التي تضم جميع الوطن وجميع ابناء الأمة ، ولكي تحافظ على هذه الدولة القومية عندما تمتلكها ؛ ولكي تسترد هذه الدولة القومية الواحدة اذا خسرتها لسبب أو لآخر .
لذلك فإن سنة النزوع القومي : تأخذ صيغة " **الوحدة أو التوحيد** " عندما تتكون الأمة الواحدة مجزأة إلى عدة دول أو دويلات اقليمية ؛ كما تأخذ صيغة " **الانفصال** " اذا كانت هذه الأمة - أو بعض أجزائها - مستوعبة في دولة أخرى غير دولتها الاقليمية .
بهذا التحديد للموقف القومي يتضح أنه :

* **فكر**

* **ومنطق**

* **ومسلك**

وذلك تجاه " مسألة - محور " من أهم مسائل التاريخ ومحاوره :

* فهو فكر بمقدار ما يجيب اجابة نظرية على الأسئلة التي تطرحها تلك المسألة .

* وهو منطق بمقدار ما يكون عنصراً من عناصر منهج في التحليل والتخطيط والتقييم : تحليل المجتمع الانساني طلباً لفهمه وادراك حركته ، والتخطيط القائم على هذا التحليل طلباً لاعادة صنع هذا المجتمع ، والتقييم لما يتم على طريق هذا الصنع من منجزات أو نكسات .
* وهو مسلك بمقدار ما يتبلور ذلك الفكر وهذا المنطق في " فعل قومي " يعبر عنهما .

وبهذا التحديد للموقف القومي يتضح كذلك انه ذو وجهين :

* الوجه الايجابي : الذي يشمل ما ينطوي عليه هذا الموقف من أجوبة ومنطق وممارسة ايجابية : تقرر مبادئ ومناهج ، وتحدد معايير وأساليب ، وترسم اهدافاً وخططاً ، وتنفذ هذه الخطط طلباً لتلك الأهداف وتقييم ذلك كله بالمعايير القومية .

* الوجه الجوابي : الذي يشمل ما ينطوي عليه هذا الموقف من أجوبة ومنطق وممارسة وصراع يجيب بها أو يرد على المواقف اللاقومية المناهضة له من حيث ينقدها وينقضها ويحبطها .

في ضوء هذا التعريف الشامل الموجز بالموقف القومي واهم سماته، بكونه موقفا انسانيا شاملا، نوجز الموقف القومي العربي ايجازا يصفه في نطاق ذلك الموقف الإنساني الشامل، وذلك كما يلي:

١- ان الموقف القومي العربي هو موقف يتبلور فيما يلي :
أ- ايجابيا :

* تأكيد حقيقة كبرى منطلق تكون نقطة البداية فيه .

* تأكيد النتائج الحركية التي تترتب ، بالضرورة " على تلك الحقيقة الكبرى المنطلق .
ب - جوابيا:

* رفض المواقف التي تنكر تلك الحقيقة الكبرى المنطلق : باية صيغة من صيغ الانكار، ومهما كانت الحجة التي تساق في تبرير هذا الانكار. وهو رفض قائم على نقد هذه المواقف ونقضها سواء اكانت مواقف اقليمية او اممية مثالية او مادية.

* رفض الدعوات والحركات التي تدعو لتجنب النتائج الحركية التي تترتب بالضرورة ، على تلك الحقيقة الكبرى المنطلق : سواء اكان هذا الرفض مباشراً صريحا مبنيا على رفض تلك الحقيقة ذاتها او ، كان رفضا ضمنيا غير مباشر من حيث يعترف، لفظيا ، بتلك الحقيقة، ولكنه يدعو لتحويلها من حقيقة انتماء حركية " ديناميكية " الى حقيقة انتساب جامدة (استاتيكية) .

٢- ان الحقيقة الكبرى المنطلق في الموقف القومي العربي هي : ان العرب في ربوع وطنهم الكبير أمة واحدة متكونة ذات قومية واحدة متكونة ايضا. وأنها تملك جميع مقومات الأمة المتكونة ذات القومية المتكونة ، وتملكها بشكل يضاهي في عمقه وفي عمره أعرق الأمم التي لا يجادل احد في أنها امم متكونة : سواء بالزعم ان العرب أمة في طريق التكون ذات قومية في طريق التكون ايضا ؛ او بالادعاء ان العرب عدة أمم ، بعضها متكون وبعضها في طريق التكون .

٣- أنه يترتب على هذه الحقيقة الكبرى المنطلق، في الموقف القومي وبمنطقه، ما يلي :
أن استقرار الوجود القومي العربي وصموده لجميع محاولات العبث بمقوماته في بعض اجزاء الوطن- منذ الإحتلال التركي وعبر السيطرة الاستعمارية فالامبريالية - اوضح من ان يحتاج إلى اثبات. فهذا التاريخ ، امام كل راغب في الاطلاع على حقائقه ووقائعه في هذا المجال، يؤكد ما نقول .

ان النزوع القومي العربي نحو اقامة الدولة العربية القومية الواحدة والنضال المتواصل من أجل بلوغ هذا الهدف ، هو نزوع لا ينكره الا كل مكابر فنداءات الوحدة ، وقوافل الشهداء الذين سقطوا تحت راياتها ، وتمسك الجماهير العنيد بها وضغط هذه الجماهير المتواصل على النظم الحاكمة من أجل تحقيق الوحدة ، وقائع تكوّن أهم وأشرف ما يعرفه التاريخ العربي المعاصر .
وليس الفشل ، حتى اليوم في إقامة الدولة العربية الواحدة ، دليلا على ضعف النزوع القومي العربي الجماهيري الوحدوي بمقدار ما هو وليد عوامل اجنبية وداخلية لا بد من التغلب عليها واسقاطها على طريق اقامة تلك الدولة. ولا يمكن أن يتم التغلب عليها واسقاطها الا بالاستناد الى الموقف القومي فكرا ومنطقا ومسلكا.

* أن ثروات الوطن العربي، كلها، ملك لابناء الأمة العربية ككل واحد. وأن مفهوم الملكية الاقليمية للثروات مفهوم يجب ان يسقط لصالح المفهوم القومي .

* أن الطبقات في الواقع العربي- بمفهومها وسماتها وصراعتها النابعة من تاريخ الأمة العربية وتراثها- تمتد على نطاق الوطن العربي متخطية الحدود : فالطبقات " الاقليمية " و " الرجعية " في كل قطر عربي متعاونة مع مثيلاتها في القطر الاخر تعاون مصلحة ومصير . و القوى " القومية " في كل قطر عربي مطالبة بأن تدرك " وحدة " ، تلك الطبقات والقوى الرجعية " الاقليمية " في محاربة القومية ، كفكرة وأمل وقوى . على نطاق الوطن كله.

أن التناقضات القائمة، ب " وجود " الدول الاقليمية في الواقع العربي ، و التناقضات الاساسية القائمة " في " تلك الدول لا تحل اطلاقا بغير الموقف القومي والوحدة العربية المعبرة عنه. واما التناقضات المزعوم وجودها " بين " تلك الدول فأنها لا تقوم ، اطلاقا " بين " الجماهير ومصالحها في هذه الدول. وانها هي تناقضات مفتعلة او مبالغ فيها يكون الموقف القومي الركيزة الاساسية في فضحها وفضح دعائها.

٤- أن الموقف القومي العربي الذي يركز جميع المعاني النظرية والحركية المشار اليها، يرفض بل يقاوم بكل وسيلة، كل محاولة مباشرة كانت او غير مباشرة تستهدف الاعتراف باغتصاب اي جزء من اجزاء الوطن السلبية مهما كان هذا الجزء صغيرا، ومهما كانت الحجج التي تساق في تبرير ذلك الاعتراف وأنه يؤكد أن استمرار التمسك بالحق العربي في كل الوطن العربي، وفي اجزائه السلبية بشكل خاص، تمسك متواصل يصنعه ويوجهه الموقف القومي هو من صميم عناصر هذا الموقف ، فيؤكد :

* أن تقرير المصير بالشكل والموضوع حق قومي وتاريخي بصدد اي جزء من اجزاء الوطن، فلا يملكه ابناء هذا الجزء من الوطن لوحده لانه ليس حقا اقليميا ، ولا يملكه ابناء الأمة العربية جمعاء في جيل معين لانه حق تاريخي تملكه اجيال قادمة ايضا، فلا يملكه بالنتيجة ومن باب

اولى اي نظام او منظمة او اية مؤتمرات للفئات الحاكمة لوحدها او بمشاركة بعض قادة المنظمات من ابناء ذلك الجزء فيها.

٥- والخلاصة ان الموقف القومي يتركز في المعادلة التالية : ثورة عربية واحدة - بحركة ثورية عربية واحدة - لأمة كريمة مناضلة واحدة - تطلب هدفاً قومياً ثورياً مركباً واحداً ذا أربعة عناصر هي الحرية ، الاشتراكية ، الوحدة ، استرداد أجزاء الوطن السليب .

الموقف القومي

في صعيد الفكر

لعل البداية في تحديد ابعاد الموقف القومي في صعيد " الفكر " أن نقرر بأن لهذا الموضوع عنصرين متميزين ومتفاعلين تفاعلاً متبادلاً . وهما :

أولاً - موقف الموقف القومي من مكان " الفكر " في حياة الانسان والمجتمع ، ودور " الفكر " في حركة التاريخ ، تاريخ الانسان في مجتمعه . أي " تقييم " الموقف القومي لمكان الفكر ودوره المذكورين . وهذا التقييم يكون نقطة فكرية وعملية أي نقطة وعي وممارسة تكون ، بدورها ، أحد المنطلقات الفكرية التي يتكون مضمون الموقف القومي منها ومن تفاعلها المتبادل .

ثانياً- موقف الموقف القومي من " الاساس " الفكري الذي يقوم عليه ذلك الموقف " ويبنى على دعاماته . أي " مضمون " ذلك الاساس الفكري : الذي يتكون من عدة نقاط اولية و اساسية تكون المنطلقات الكبرى التي يتكون هذا المضمون منها ومن تفاعلها المتبادل .

وعلى هدى هذا التوضيح للبعدين الرئيسيين او المعنيين الاساسيين لمبادرة " الموقف القومي في الصعيد الفكري " ، يجدر بنا أن نطرحهما ايجابيا وجوابيا أي طرحا مقارنا ؛ على ان نلاحظ ، منذ البداية ، أن التفاعل المتبادل بينهما يجعل من الافضل عدم معالجة كل منهما لوحده ، متصلا عن الآخر في سياق البحث ، بل يجعل من المستحب طرحهما بطرح الموقف القومي في صعيد الفكر ككل متكامل واحد .

في ضوء ما تقدم ، وعلى هديه ، يمكننا أن نجمل الموقف في صعيد الفكر في النقاط الاساسية التالية:

١- ان الفكر فعالية من فعاليات الإنسان الأساسية واولية ، غير مشتقة أو ثانوية من أية فعالية أخرى او بالنسبة لها .

فالفكر احد الفعاليات التي يتميز بها الانسان عن غيره من الكائنات الحية تميزاً نوعياً. ومعنى هذا أن الفكر يقف على مستوى متكافئ من الاولوية (او الاسبقية) ومن الاساسية مع الانتاجية الانسانية كفعالية يتيح بها الإنسان حاجاته من الطبيعة ، بأن يضيف عمله الى هذه الطبيعة لكي يحولها الى منتجات تشبع حاجاته.

فلا يستقيم اذن ، ان نقول : ان الفكر فعالية مشتقة من الانتاجية او انها في خدمتها . او ان الفكر - بمضمونه كل مضمونه - انعكاس للعلاقات الانتاجية ومن ثم ذا سمة طبقية ، وان كانت بعض المضامين الفكرية كذلك .

ولا يستقيم اذن ، ان نعتبر ايا من الفعالتين الانسانيتين المميزتين ، وهما الفكر والانتاج مشتقة من الفعالية الأخرى أو ثانوية بالنسبة لها ، على ما بينهما من علاقة وتفاعل متبادل .

لا ريب في ان كون الانسان كائنا منتجا. يفي ويتطلب ان يستعمل فكره في تحقيق متطلبات حياته وحاجات معيشتة ، أي في خدمة متطلبات الانتاج بغاية تحسينه ، كما وكيفاً ، من اجل الوفاء بحاجاته المعيشية ، بصورة نامية مع نمو هذه الحاجات وتزايدها .

ولكنه لا ريب كذلك أن كون الانسان كائناً مفكراً يعني ويتطلب أن يضع انتاجه وتقدمه الانتاجي في خدمة فكره ومتطلبات هذا الفكر . وفي مقدمة هذه المتطلبات فضول الانسان ، أو حبه للاستطلاع ، الذي يدفعه لطلب المعرفة من أجل المعرفة في ذاتها كذلك .

ان انكار ان فعالية الفكر في الانسان فعالية أولية و اساسية ، حتى لو توفر الاعتراف بأهميتها الكبرى في نطاق هذا الانكار ، تنزل " بالفكر " عن مكانه الحقيقي من حياة الانسان ، وينزل بحياة الانسان عن مستواها الصحيح بين مستويات الكائنات الحية ، فيتنازل بذلك المكان وهذا المستوى إلى المفهوم البدوي - الانتاجي للانسان نفسه ، وهو المفهوم الذي يرى المميز الأولي والأساسي للانسان عن غيره من الكائنات الحية الأخرى انما هو ، على سبيل الحصر ، انه كائن حي ذو قامة منتصبة وذو يدين " تنتجان " ، وليس انه - بالاضافة إلى ذلك ، وعلى نفس مستواه من الأولوية والأساسية - كائن عاقل مفكر .

ان هذا التقييم اليدوي - الانتاجي للانسان ينتهي بأصحابه إلى تقييم الانسان بأنه مجرد " رأس مال " في عملية الانتاج .. سواء أكان " أرخص " رأس مال كما تقول الرأسمالية ونظرياتها المختلفة ، أو كان " أثمن " رأس مال كما تقول الشيوعية ونظريتها الماركسية بمختلف مدارسها .

أن تقييم الموقف القومي للفكر كفعالية انسانية ، ولمكانه من انسانية الإنسان يسقط المفهوم المذكور للانسان ويرفضه لانه يرى ان الانسان " بالفكر والقلب والارادة ، اكثر واكبر و اعظم من ان يكون مجرد " رأسمال " في عملية الانتاج ، رخيصا كان أو ثميناً.. لأنه " انسان " !!

ان هذه النقطة الاولى في تقييم مكان الفكر من انسانية الإنسان تكون المنبع الرئيسي للمميز للموقف القومي . في صعيد الفكر تجاه الانسان . وبالتالي تجاه المجتمع والامة والقومية وتجاه الطبقة والطبقية. ثم تجاه حركة التاريخ ومنطق هذه الحركة.

بل ، ان هذه النقطة الاولى من نقاط الموقف القومي في صعيد الفكر تكون المحور الأساسي في الموقف القومي تجاه مفهوم الحضارة والرسالة الحضارية ، وتجاه القيم وتسلم القيم المرتبطة كل الارتباط بذلك المفهوم وهذه الرسالة . وذلك لأن هذه النقطة الأولى من نقاط الموقف القومي تحدد كما بينا - المنطلق الأساسي تجاه فهم " الانسان " وتقييمه الأمر الذي يكون المحور الأساسي للحضارة - كمفهوم ورسالة وكقيم وسلم قيم - .. لأن الحضارة ، في الموقف القومي . هي الموقف من " الانسان " ، بما يعنيه ذلك من فهم وتقييم له يتبلوران في نظم وعلاقات وفعاليات تجسم هذا الفهم وتعبير عن هذا التقييم .

ومن هذا المنبع منبع تقييم الموقف القومي لمكان الفكر من فعاليات الانسان وللعقل من انسانيته . ينبع الفرق المميز بين الموقف القومي من جهة والمواقف اللاقومية من جهة تجاه " الحضارة " الانسانية بقيمتها ومثلها . كما ينبع تأكيد الموقف القومي على احترام انسانية الانسان باحترام فكره ورأيه . أي تأكيد الموقف القومي على أحد عناصر الديمقراطية وهو عنصر احترام الفكر وحرية تكوين الرأي والتعبير عنه .

على أن هذا الموقف القومي في صعيد " الفكر " لا يعبر عن عفائية مثالية أو غيبية ترى أو تدعي ان الفكر هو الفعالية الاولى الاساسية الوحيدة بين فعاليات الانسان ، أو أن العقل هو المقوم الأولي الاساسي الوحيد بين مقومات انسانيته . لأن الموقف القومي في صعيد الفكر ، يؤكد أن ثمة فعاليات أخرى كالانتاجية هي أيضاً فعاليات اولية و اساسية من فعاليات الانسان ، فيؤكد أن فعاليات الانسان ومقومات انسانيته ، الاولى الاساسية ، لا تنحصر في فعالية واحدة أو مقوم واحد تنشأ عنها وتشتق منها الفعاليات والمقومات الأخرى .

ان هذا الموقف القومي ، في صعيد الفكر ، يفرض بل يسقط الموقفين المثالي والمادي اللذين ينطلقان من الاصرار على " وحدانية الفعالية " والمقوم الاوليين والاساسيين من فعاليات الانسان ومقوماته وان اختلفا في تحديد هذه الفعالية أو هذا المقوم الاولي الاساسي " الوحيد " . وهو إذ

يرفض تلك " الوحدانية " ويسقطها فإنه يقيم على انقاضها مفهوماً للانسان وتقيماً له يدرك تعدد فعاليتها ومقوماته الأولية الاساسية . ويدرك - في الوقت نفسه - " الوحدة الجدلية " لهذه الفعاليات والمقومات الأولية الاساسية التي تتجسم في " الشخصية الانسانية " : المفكرة المنتجة ، المريدة الاجتماعية ، التراثية .

٢- أن الفكر رابطة اولية وأساسية من روابط المجتمع : ليست مشتقة من اية رابطة اخرى او ثانوية بالنسبة لها. فهي ليست مشتقة من الرابطة الانتاجية - الاقتصادية أو مشتقة منها بصفة خاصة ، وان كان بينهما ، بالطبع ، علاقات تفاعل متبادل .

فالرابطة الفكرية . وما تتبلور فيه من تراث مشترك وحياء عقلية مشتركة ، احدى الروابط الأولية الاساسية التي تقوم بها وعليها المجتمعات البشرية ، وهي تقف على مستوى متكافئ من الأولية والاساسية مع الرابطة الانتاجية الاقتصادية .

فلا يستقيم اذن ، أن نقول : ان الرابطة الفكرية مشتقة من الرابطة الانتاجية أو انها في خدمتها ؟ او ان الرابطة الفكرية انعكاس للروابط الانتاجية (العلاقات الإنتاجية) وان السمة التطبيقية لها هي السمة الغالبة والسابقة .

ولا يستقيم كذلك ان نعتبر أياً من الرابطتين الاجتماعيتين . الرابطة الفكرية والرابطة الانتاجية مشتقة من الرابطة الاخرى أو ثانوية بالنسبة لها على ما بينهما من علاقة وتفاعل متبادل .

لا ريب في أن الرابطة الانتاجية رابطة اولية وأساسية من بين الروابط التي تفسر قيام المجتمعات البشرية - وهي الرابطة التي تفسر قيام المجتمعات البشرية . وهي الرابطة الأولية والاساسية التي تفسر قيام الطبقات في المجتمع الواحد .

ولكنه لا ريب كذلك ، في أن الرابطة الفكرية رابطة اولية وأساسية من بين تلك الروابط التي تفسر قيام المجتمعات البشرية ، والتي تتبلور في مقومين أوليين وأساسيين من مقومات " الأمة " وفي عاملين أوليين وأساسيين من عوامل " القومية " ألا وهي : اللغة والطابع الحضاري (الحياة العقلية - الروحية المشتركة ، التراث المشترك ، الطابع الحياتي المشترك) .

أن انكار ان الرابطة الفكرية رابطة " اولية وأساسية من الروابط التي تكون المجتمعات وترسم حدودها وملامحها ، حتى لو توفر الاعتراف باهميتها في نطاق هذا الانكار ، ينتزل بالرابطة الفكرية عن مكانها الحقيقي في المجتمع الانساني ، وينزل بالمجتمع الانساني عن مستواه الصحيح بين مستويات الوجود الأخرى فينزل بذلك المكان وهذا المستوى إلى المستوى " الانتاجي - الاقتصادي " للمجتمع الذي يلتقي مع المستوى " اليدوي - الانتاجي " للانسان الذي تحدثنا عنه .

ان الرابطة الفكرية تميز المجتمع الانساني عن خلية النحل- ومثيلاتها من القطعان الحيوانية المنتجة- تمييزاً اولياً واسبابياً. وفي العسير ، بل من المستحيل فهم المجتمعات الانسانية وتطورها لتبلغ مرتبة الأمم ذات القوميات - مع ادراك تكون الطبقات وقيام الصراع الطبقي ، ضمن هذه المجتمعات أو الأمم - بغير الاعتراف بأن الرابطة الفكرية رابطة اولية وأساسية من روابط المجتمع الانساني أوسع مدى وأفقاً من الروابط الانتاجية - الاقتصادية ..

٣- ان الفكر ، بعد ذلك عامل أولي وأساسي من عوامل دفع حركة التاريخ ، وعلى الاخص الدفع التقدمي بكل ابعاده .

ان الفكر الذي يعبر عنه الوعي المحرك للارادة الانسانية ، عامل أولي وأساسي يقف إلى جانب عوامل التناقضات والصراعات التطبيقية على نفس المستوى من الأولية والاساسية في تقرير منطق التاريخ اتجاهاً وسرعة .

ان التناقضات ذاتها لا تتحول الى صراعات الا من خلال وعيها ومن خلال اصدار حكم اخلاقي برفضها ، ولذلك فإن توفر عامل الوعي الثوري شرط اولي وأساسي لإمكان التغيير الثوري ، شأن توفر عاملي التناقض الموضوعي والارادة الفاعلة .

ان مكان الفكر من حركة التاريخ ودوره في تقرير منطوق التاريخ ، يبرز بصورة خاصة عندما نذكر أن " التناقض المفجر للصراع " علاقة لا يمكن أن تقوم إلا بين قوى بشرية مفكرة واعية مقيمة مريدة - فمن السخف ، في رأينا ، الحديث عن تناقض مفجر للصراع لا يكون طرفاه قوى بشرية كهذه .. كأن نقول بوجود تناقض في الطبيعة بين عناصرها الميتة ، أو بين الكائنات الحية والطبيعة ذاتها ، أو حتى بين الكائنات الحية - باستثناء الانسان والانسان الآخر .

لا مرأ في ان الشحنة الكهربائية تتنافر مع الشحنة المشابهة - سلبية كانت أو ايجابية - ولا شك في ان الكائنات الحية تكافح للحصول على مقومات بقاءها من الطبيعة ، ولا ريب في أن الكائنات الحية تتقاتل فيأكل بعضها بعضاً .. ولكن هذا ، كله ، لا يرقى الى مستوى التناقض أو التناقض المفجر للصراع ، لأن التناقض والصراع التي تحرك التاريخ مقصورة ، حصراً على الانسان والقوى البشرية .. وعلى تحريك التاريخ الانساني وليس التاريخ الطبيعي .

وفي هذا المجال ، مجال التاريخ الانساني ، لا سبيل لانكار سلامة الموقف القومي الذي يدرك ويؤكد ان الفكر الذي يتجسم في وعى وتقييم ، وما يعينانه من قبول ورفض ، محركين للارادة الانسانية انما هو عامل اولي و اساسي من عوامل حركة التاريخ وتقرير منطوق هذه الحركة .

ان هذا التأكيد لمكان الفكر دوره من حركة التاريخ ومنطقه لا ينقذ التاريخ من ان يكون مجرد ركام من الصدفة والاحتمالات التي لا منطق لها ولا سنن تحدد اتجاه حركتها فحسب، ولكنه ينقذ التاريخ كذلك من ان يصبح مسيرة حتمية تضع حتميتها عوامل قدرية واقعة خارج انسانية الانسان ، سواء اكانت قدرية مثالية او كانت قدرية مادية .

ان هذا التأكيد لمكان الفكر ودوره من حركة التاريخ ومنطقه يؤكد ويفسر كون التاريخ حركة ذات اتجاه ومنطق ، ولكنه يؤكد ويفسر كون هذه الحركة مسيرة حتمية يصنع حتميتها الانسان بوعية وارادته ، اللذين يتفاعلان مع مقومات وجوده ومتطلباتها وفعاليتها الأولية الاساسية الاخرى .

ان الموقف القومي في صعيد الفكر : يرفض كما قلنا ، الاتجاه المادي والاتجاه المثالي اللذين يتفقان على تأكيد " وحدانية " الفعالية الانسانية الأولية الاساسية . و الرابطة الاجتماعية الأولية الاساسية ، والعامل المحرك للتاريخ الاولي الاساسي ، رغم اختلافهما على تحديد تلك الفعالية او الرابطة او هذا العامل ، ثم يؤكد تعدد تلك الفعاليات والروابط والعوامل مع وحدتها الجدلية في الشخصية " الانسانية " والمجتمع " الانساني " والتاريخ " الانساني " ، ولكن هذا الموقف ، في مجال التاريخ ، يؤكد ان عامل الفكر فالوعي المجسم له يمتاز بأهمية خاصة تكاد تبلغ مستوى الاسبقية على جميع العوامل الاخرى .

من هذا فان الموقف القومي في صعيد الفكر ، وتجاه حركة التاريخ يبرز اهمية تعميق " الوعي " عموديا وانتشاره افقيا ، كشرط مسبق و اولي ، لامكان احداث التغيير التاريخي الكبير الذي يميز الثورة عن الفورة ، ويميز التخطيط عن العفوية والإرتجال ، ويميز العلمية عن المغامرة .

٤- والى جانب ما تقدم فان الموقف القومي في صعيد الفكر يلاحظ ان دور الفكر ومكانه- في كل من الدوائر المذكورة .. دائرة تعريف الانسان وتقييمه، ودائرة تعريف المجتمع وتحديد روابطه، ودائرة صنع التاريخ وتحديد منطوق حركته - هو دور أخذ في الإزدياد والنمو على حساب العوامل الأخرى بصورة تتناسب مع التقدم الحضاري .

ان دراسة مقارنة موضوعية لتكيز الانسان على مختلف فعالياته ومقوماته . كانسان ومجتمع وتاريخ ، ستبرز ، في غير عناء : اتجاه الانسان نحو تأكيد مكان بفكره المتميز والممتاز بين تلك الفعاليات و المقومات . ونضال الإنسان من اجل فرض احترام الفعاليات الفكرية للفرد ، والروابط الفكرية للجماعة ، والعوامل الفكرية لصنع التاريخ نضالاً اصبح يرجح على كل نضال آخر . لأنه الطريق الموصل بكل نضال اخر الى اهدافه المنشودة ، وفي مقدمتها الحرية .

ان الكثير من انواع الارهاصات التي نشهدها في بلاد العالم المتقدم، التقدمي منه والرجعي، تصبح اكثر وضوحا عندما نضعها في اطار " احتجاج " الإنسان على الحط من قدره كإنسان وعلى تحطيم انسانيته كإنسان المعبرين عن انكار المكان المتميز والممتاز لفكره ووعيه ورأيه وحرية .

ان الموقف القومي، في صعيد الفكر ، اذ يؤكد تلك النقاط ، كتقييم لمكان الفكر ودوره من حياة الإنسان ومجتمعه ، وتاريخه ، وكبيان لمضمون منطلقاته الفكرية تجاه الإنسان والمجتمع والتاريخ ، هذا الموقف القومي في صعيد الفكر يعلن : ان الإنسان كائن حي ذو عقل وقلب و ارادة ، تراثي ، حضاري ، وان فعالياته النابعة من هذه المقومات والروابط المجسمة لهذه المقومات هي فعاليات وروابط ، شأن تلك المقومات ، أولية وأساسية في حياة الإنسان ومجتمعه ووجوده ، فلا يستقيم ، أبداً ، اعتبار بعضها أولياً والبعض الآخر مشتقاً أو بعضها أساسياً والبعض الآخر ثانوياً .

ولقد رفض " الإنسان " وتحدى عبر تاريخه ، ولعل هذا من اهم عبر تاريخه " رفض وتحدي كل نظرية وكل نظام :

* ينكر ايا من مقومات انسانيته

* او ينتكر لمتطلبات اي مقوم من تلك المقومات او لفعالياته، او للعلاقات النابعة منه، او لاثرها في الحياة والمجتمع والتاريخ.

* او يصف تلك المقومات او المتطلبات او الفعاليات او العلاقات النابعة منها الى اولي ومشتق او اساسي وثانوي ، او خير وشرير ، او مسامح ومنحط ، او قبيح وجميل .

* او يضع بعض هذه المقومات او المتطلبات أو الفعاليات او العلاقات النابعة منها. في موقع التناقض الأزلي او الطبيعي مع البعض الآخر.

* او يعجز عن ادراك مكان الإنسان ودوره ومسئوليته " الفذة " في الطبيعة والحياة والتاريخ ، ككائن حي يتميز عن بقية الاحياء ويمتاز عليها تميزا وامتيازاً نوعيين .

* او يقوم على التنكر لمبدأ تساوي الإنسان مع الإنسان الاخر في القيمة الانسانية مهما كانت مظاهر هذا التنكر .

ولقد رفض الإنسان وتحدى جميع تلك النظريات والنظم في صورها المختلفة فثار عليها لانها تنتهي - في النتيجة- الى تحطيم الشخصية الانسانية " او تشويهها، والى هدر الحياة الانسانية او استغلالها وافقارها، او الى قسر التاريخ الإنساني وسوء فهمه واساءة تفسيره وتغييره . لذلك فان الموقف القومي الواعي يقوم على ادراك مطمئن لرفض جميع الافكار التي تمثلها تلك النظريات والنظم وما ينبع عنها من قيم ومناهج وعلى الاخص في صعيد الفكر.

ان الموقف القومي في صعيد الفكر، بعد ما تقدم وبمنطقه، يؤكد عنصر " الالتزام " في الفكر، وعلى الاخص الفكر المنطقي او الفكر الإيديولوجي، لان الفكر بطبيعته " حركي " : الالتزام من سمات الحركية ، غير الانتهازية.

ان عنصر الالتزام الذي يتبلور في " الفعل " المعبر عن الفكر وفي " العمل " المجسم للكلمة وفي " التغيير " القائم على التفسير، هو العنصر الذي لا يأخذ الفكر، بدونه، مكانه ودوره في حياة الإنسان والمجتمع و التاريخ .

فليكن موقفنا القومي واضحا موحداً في صعيد الفكر ، وليكن موقفنا الفكري ملتزماً محرماً على صعيد المسلك ، فبذلك ، نضع التاريخ بمنطق الموقف القومي ووفقاً لمبادئه وقيمه .
